لعل مما يصح أن يكون مبعث تفاؤل لمن يكون قد أقلقهم ما تم استعراضه من جوانب الصورة القاتمة لراهن علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي أن التطورات المحلية ذات الصلة بهذه العلاقة تبدو أكثر إيجابية. ومن تلك التطورات التنامي الملحوظ في وعي كل من طرفي العلاقة، والتوسع المتواصل للهامش الديمقراطي في المجتمع العربي، وانتعاش حركة انتظام ومؤسسة المجتمع المدني العربي و...الخ.

جدلية العلاقة بين النخبة والجمهور العربي

● من الظواهر الإجتماعية التي تلفت الإنتباه وتحظى بالدراسة ظاهرة التمايز أوالإنقسام الإجتماعي إما أفقياً كالإنقسام إلى شعوب وقبائل وإما رأسياً كالإنقسام إلى طبقات. ومن بين حالات التمايز الإجتماعي الرأسي التمايز إلى نخبة وجماهير.

ومع أن ظاهرة التمايز إلى نخبة وجماهير هي ظاهرة اجتماعية قديمة وتبدو ظاهرة مستمرة إلا أنها تثير إشكالات فكرية عديدة من بينها إشكالات نظرية مثل إشكالية مستقبل الظاهرة نفسها أي ما إذا كان الارجح أنها ستدوم ما دام المجتمع البشري أم أنها ستختفي مع تطور المجتمع إلى أوضاع معينة كما تكهن البعض بزوال ظاهرة الإنقسام الطبقي مستقبلاً وإشكالات عملية في مقدمتها إشكالية العلاقات بين طرفيها وهي ما نعتزم هنا مقاربتها في وضعها العربي ممهدين لذلك بمقدمة تتناول الظاهرة عموماً.

تمايز الجمهور - النخبة: المفهوم

مفهوم النخبة:

لكلمة النخبة- وتنطق -بضم النون وإسكان الخاء- وإن كان ابن منظور استحسن لغوياً ما رواه عن نطقها -بضم النون، ونصب الخاء- استخدامان متقاربان وقد يخلوان من بعض التداخل، وهما الاستخدام اصطلاحي والاستخدام اللغوي.

يستفاد من الأدبيات المتاحة أن كلمة النخبة تستخدم اصطلاحاً للدلالة على الجماعة الأكثر قوة ونفوذا أو تأثيراً في المجتمع وعادة ما يقصد بها النخبة الحاكمة و/ أو النخبة الثقافية.

وتتراوح مدلولات النخبة الحاكمة/ السياسية اتساعاً وضيقاً بين دوائر متراكزة أضيقها دائرة الحاكم وشركائه وأعوانه المباشرين في السلطة من السياسيين والتنفيذيين والعسكريين والامنيين وتتسع أوسعها لتشمل سائر الشركاء والأعوان غير المباشرين من ذات الفئات وغيرها كالقوى المالية والاعلامية سواء الحاكمة أو المعارضة.

وبالمثل تتراوح مدلولات النخبة الثقافية اتساعاً وضيقاً بين دوائر متراكزة أضيقها دائرة المنظرين السياسيين والمفكرين وصناع الرأي العام وقادته وتتسع أو سعها ليشمل كل من يشتغل بالكلمة المؤثرة بما فيهم المعلمين والروائيين وسواء كانوا في السلطة أو ضدها. وهذا الاستخدام الاصطلاحي لكلمة النخبة نشأ في البدء خارج الأدبيات العربية

وفي استعمالها اللغوي الشائع يتضمن معنى النخبة التفضيل أو التحسين أو الاختيار. ولذلك ليس من الشائع ، ولعله من المستهجن، استخدام وصف نخبة للفئات أو الشرائح المنبوذة أو غير المرغوبة اجتماعياً فلا يقال مثلاً نخبة القتلة أو نخبة المجرمين بينما من المعتاد سماع عبارات من مثل نخبة الشعراء ونخبة الرياضيين.

وقد أثار هذا الإيحاء بالتفضيل عدم ارتياح أو اعتراض البعض والذي حاول أن يستبدل بكلمة النخبة في استعمالها الاصطلاحي كلمة أخرى لم يتفقوا عليها حيث روج بعضهم لكلمة الطليعة بينما فضل آخرون كلمة الملأ واقترح بعض ثالث كلمة السراة التي التقطها من نصوص الشعر العربي.

وإلى حين الفصل في ما إذا كان الأنسب اختيار كلمة أخرى أو الابقاء على ذات الكلمة قد يفيد وقد يكفي التذكير باهمية التفريق بين الاستخدام اللغوي للكلمات والاستخدام الاصطلاحي لها. ويعني هذا التفريق في حالتنا هذه أن كلمة النخبة إذا ما استخدمت اصطلاحاً فإن معناها يتحدد وفقا للتعريف الاصطلاحي له والذي ليس من بين عناصره عنصر التحسين أو التقبيح ولا يفترض اصطحاب أو الاعتداد بالإيحاءات اللغوية في الاستخدامات الاصطلاحية ما لم يتضمنه أو يشير اليه التعريف. ولذلك فإن مصطلح -مثلاً- النخبة الحاكمة تصدق اصطلاحاً على الحكام سواء كانوا فعلاً نخبة صالحة شريفة أو كانوا زمرة طالحة مجرمة.

ولا تتفق الاستخدامات الاصطلاحية لكلمة النخبة على مدلول معين حيث مال البعض في البدء، وخاصة في الدراسات الإجتماعية، على حصر مدلولها في النخبة الحاكمة ووسعه البعض ليشمل النخبة السياسية كلها والحق البعض بالنخبة الحاكمة النخبة الثقافية ومؤخراً ساد الاتجاه إلى توسيع المدلول ليعني الأكثر تأثيراً في الشأن العام من سائر الفئات بما فيها فئات الحكام والسياسيين والمثقفين والعسكريين والاقتصاديين والإعلاميين و..الخ

وإذا ما تبين المفهوم العام للنخبة، بدا واضحاً أن مفهوم الجمهور يقصد به هنا جماع من ليسوا من النخبة من أفراد المجتمع.

علاقة الجمهور- النخبة:

الطبيعة:

حيثما وجد تمايز إلى جمهور ونخبة تكون بينهما بالضرورة علاقة ما.

ومن بين أهم سمات هذه العلاقة أنها:

- الجدلية: ربما لأنه لا شيء في هذا الكون، في ما نعلم، يقوم بذاته أو مستغن عن غيره، يبدو أن الطبيعة العامة لسائر العلاقات في هذا الكون هي أنها علاقات جدلية أي تبادلية أو ثنائية الاتجاه وليس أحادية الاتجاه.

ويصدق ذلك على علاقة الجمهور- النخبة إذ أنها علاقة جدلية تقوم على تبادل طرفيها ليس فقط المنتجات، المادية والمعنوية أو الرمزية، والأدوار وإنما حتى أيضاً الأفراد الذين ينتقلون من طرف إلى طرف لتغير في أدوارهم أو نتيجة التزاوج. ومن خلال كل تلك التبادلات يتبادل الطرفان التأثير والتأثر .

الإيجابية- السلبية:

مهما كانت المتبادلات بين الجماهير والنخبة فإن تأثيرها أو مردودها لايكاد يخلو من خليط من الفوائد (الايجابيات) والاضرار(السلبيات).

وتعتبر العلاقة إيجابية في التقدير العام إذا ما كانت فوائدها أكبر من أضرارها وتعتبر سلبية إذا ما كانت أضرارها أكبر من فوائدها.

وضمن متصل الإيجابية -السلبية تتراوح علاقة الجمهور- النخبة بين القوة والضعف وبين العدل والظلم وبين الحب والكراهية وبين الانسجام والتناقض وبين السلم والحرب وبين الحوار والصراع ولا تستقر استقراراً أبدياً على حال دون حال.

ومن هنا يتضح أن المعني بجدلية علاقة الجماهير- النخبة ليس هوالجدلية بمفهومها الشائع الماركسي الذي يستلزم التناقض والصراع.

الأهمية:

حيثما وجد تمايز جماهيري- نخبوي توجد بالضرورة علاقة بين طرفي التمايز أي بين الجماهير والنخبة وقد تكون هذه العلاقة قوية أو ضعيفة، ولكن كما أن قوتها مهما ازدادت وتعاظمت لا تؤول إلى الاطلاق فكذلك ضعفها مهما ازداد ضعفاً لايؤول أبداً إلى الصفر حتى عندما توصف أحياناً تجاوزاً بالانقطاع.

والأصل في ذلك منطقياً أن أي تمايز، ومنه تمايز الجمهور- النخبة، لا يمكن تصوره إلا على أساس علاقة، فلا يمكن مثلاً تصور نخبة حاكمة دون افتراض وجود جمهور يرتبط بتلك النخبة بعلاقة الحكم. ويشهد الواقع على أنه مهما كان هناك تمايز جماهير- نخبة كان هناك علاقة ما بينهما.

على أن ما يهمنا في هذه العلاقة ليس بعدها التصوري المنطقي أو الواقعي وإنما بعدها الوظيفي وخاصة من المنظور التنموي الحضاري. فالبناء الحضاري هو بالضرورة بناء مجتمعي أي يتطلب مشاركة وتكامل جهود كل أطراف المجتمع وإذا ما كان هذا المجتمع متمايزا إلى جمهور ونخبة فإن ضرورة مشاركة وتكامل جهود كل أطراف المجتمع تعني ضرورة مشاركة وتكامل جهود طرفي الجمهور والنخبة ولكن جهود الجمهور وجهود النخبة لا يمكن أن تتكاملان إلا إذا كانت بينهما علاقة تكاملية.

وإذا صح ذلك لا يبدو من المبالغة أن نقول إن الحضارة في المجتمع المتمايز إلى جمهور ونخبة دالة في علاقة الجمهور والنخبة وبحيث أنه بقدر استقامة وازدهار هذه العلاقة تستقيم وتزدهر الحضارة وبقدر اختلال وتدهور هذه العلاقة تختل وتتدهور الحضارة. ويوضح ذلك أكثر مدى أهمية علاقة الجمهور- النخبة.

المؤثرات:

إذا كانت علاقة الجمهور- النخبة بتلك الأهمية التنموية والحضارية تتعين معرفة العوامل التي تؤثر على هذه العلاقة لتتسنى معالجتها بما يساعد على توجيه العلاقة وتنميتها من اجل استنهاض المجتمع وتفعيل البناء الحضاري. وليس المقام لحصر تلك العوامل ولكن يمكن الإشارة إلى بعضها كما يلي:

الوعي :

كلما كان وعي طرفي العلاقة أي الجمهور والنخبة عالياً ومتقارباً مستوى ومنسجماً مضموناً مالت العلاقة إلى الاستقامة والسلاسة والازدهار، وكلما كان الوعي متدنياً ومتفاوتاً مستوى ومتعارضاً مضموناً مالت العلاقة إلى الاختلال والتصادم. والمعني بالوعي هنا يشمل الوعي العام متمثلا في المستوى التعليمي و المستوى الثقافي العام والوعي الخاص أي وعي كل طرف بدوره ومهامه.

المرجعية:

- المرجعية: يتأثر سلوك البشر عموماً، جمهوراً كانوا أم نخبة، بمرجعياتهم الدينية والفكرية أي بمنظومة المسلمات والمبادئ التي يرجعون إليها في أحكامهم القيمية أو الخلقية كأحكام الخير والشر والصواب والخطأ. وكقاعدة عامة فإن وحدة وتماثل المرجعيات من شأنه المساعدة على تقارب البشر عموما شعورياً واتجاهاً وسلوكاً مما يوثق العلاقة بينهم بينما تباين أو تناقض المرجعيات من شأنه أن يقلل من أسباب التقارب وجداناً وسلوكاً مما يضعف العلاقة بينهم وقد يتسبب في توتير العلاقة بينهم على نحو قد يتصاعد إلى درجة التصادم والاحتراب. ويصدق ذلك على العلاقة بين الجمهور والنخبة وبحيث إنه كلما تماثلت أو انسجمت مرجعية النخبة مع مرجعية الجمهور مالت العلاقة بينهما لأن تكون إيجابية وكلما تباينت وتناقضت مرجعياتهما مالت العلاقة بينهما لأن تكون سلبية.

العلاقات الداخلية:

للعلاقات الداخلية بين قطاعات وفئات كل من الجمهور والنخبة أثرها على العلاقة بين الجمهور والنخبة.

فالنخبة التي تتسم علاقات فئاتها وتياراتها بالتنافر والتصادم عادة ما تعجز عن منع انعكاس هذا التنافر والتصادم على علاقات النخبة بالجمهور ومن ثم على علاقات الجمهور ببعضهم البعض.

وعلى سبيل المثال فإن التصادم أو التحاور بين النخبة الحاكمة والنخبة الثقافية عادة ما تلقي بظلالها على علاقات الجمهور بالنخبة الحاكمة تصادماً أو تحاوراً. وبالمثل فإن توتر العلاقات بين قطاعات أو فئات الجمهور كثيراً ما ينعكس توتراً على علاقات الجمهور بالنخبة.

الجمهور- النخبة عربيا:

من أهم الإشكاليات التي تواجه محاولات المعالجة العلمية لأي جانب من جوانب المجتمع العربي قلة توافر الدراسات العلمية الرصينة الميدانية والنظرية أو التحليلية للمجتمع العربي . ويصدق ذلك على محاولة المعالجة العلمية لجانب التمايز الجمهوري- النخبوي للمجتمع العربي. ومع انه ومنذ فترة ما بعد رحيل الاستعمار وتسلم النخب العربية السلطة في البلاد العربية وخاصة منذ عقد السبعينات من القرن الماضي ظهرت بعض الدراسات عن النخب في المجتمع العربي إلا انه يلاحظ أن هذه الدراسات والتي تبنت في الغالب المنظور الحداثي الغربي أو المنظور الماركسي ونادرا المنظور الإسلامي أو المنظور بعد-الحداثي مثلت جهوداً فردية وركزت على النخب القطرية وخاصة النخبة الحاكمة/ السياسية والنخبة الثقافية ولم ترق على دراسة أكاديمية جماعية منظمة للنخبة العربية على المستوى القومي وبمختلف فئاتها وشاملة للجوانب الميدانية والنظرية بناء على منهج تعددي مقارن.

ومع الأخذ في الاعتبار بالإشكالية السابقة نحاول في ما يلي تناول علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي:

علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي:

الراهن:

مثلها مثل علاقات الجمهور- النخبة في المجتمعات الأخرى تتسم علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي بالجدلية .على أن هذه العلاقة تغلب عليها منذ بدايتها في التاريخ العربي المعاصر السلبية. وقد لا يحتاج المرء للتدليل على غلبة السلبية على علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي إلى اكثر من ملاحظة انه بالرغم من مضي نصف قرن تقريبا على بدء أو دخول هذه العلاقة مرحلة البناء الحضاري والتنموي، بعد انتهاء مرحلة التحرير مع رحيل الاستعمار، لم تنجح بعد، وقد لا يكون من المبالغة القول بأنها فشلت، في تحقيق التقدم المطلوب في استنهاض المجتمع وتامين الانطلاق الحضاري.

وعدم التمكن من أو الفشل في تامين الانطلاق الحضاري إنما يؤكد وجود خلل في علاقة الجمهور- النخبة إذ لوكانت هذه العلاقة سليمة لما كان المجتمع العربي على ما هوعليه الان من تاخر ليس في البناء الحضاري الشامل وإنما حتى في عملية التنمية الاقتصادية الشاملة والتي قطعت فيها مجتمعات عالم ثالثية أخرى أشواطاً مقدرة ومتقدمة كثيراً على ما حققه المجتمع العربي.

ويحتاج الأمر إلى دراسة واسعة وشاملة لتحديد أوجه الخلل في علاقة الجمهور - النخبة في المجتمع العربي على نحو دقيق. ولا يمكننا في مثل هذا المقام سوى الإشارة العامة لبعض تلك الاختلالات على النحوالتالي:

اللاوضوح:

منذ البدء افتقرت علاقة الجمهور - النخبة في المجتمع العربي للتقنين الواضح لحقوق ومهام وسلطات الطرفين كما افتقرت للرؤية الواضحة التي تحدد وجهتها الحضارية ومسارها التنموي. وصحيح أن النخب العربية سارعت عموما إلى اشتراع الدساتير والقوانين ووضع المواثيق إلا أنها كلها صيغت في الغالب من قبل النخبة وبدون مشاركة حقيقية من الطرف الآخر أي الجمهور.

ونزعت إلى إغفال التحديد المفصل والدقيق لحقوق وسلطات الطرفين أو تحديدها على نحو ينتقص من حقوق وسلطات الطرف الغائب لصالح تضخيم حقوق واختصاصات وسلطات، ولكن ليس مسئوليات، الطرف الذي صاغها.

وقد أسفر ذلك عن غموض، ربما كان مقصوداً، أتاح للنخبة المزيد من السلطات والقدرة على الحركة لتأمين مصالحها واتخاذ ما تراها من اجراءات ضد الجمهور.

ولم يقتصر اللاوضوح والغموض على الوثائق الرسمية المنظمة للعلاقات بين النخبة الحاكمة والجمهور بل تعداها إلى اطروحات وأدبيات النخبة الثقافية التي تتناول التنظير للشأن العام حيث سادتها العمومية المخلة بوضوح الرؤية وتبين المسار المستقبلي.

ومما زاد الجمهور إرباكاً تعارض وتناقض مضامين واتجاهات ومرجعيات فكر النخبة العربية وتصاعد اللجاجة والجدال بين تياراتها

الوصائية:

ظلت النظرة السائدة لدى النخبة العربية للجمهور العربي نظرة مبنية على تقدير أن الجمهور العربي جمهور غير واع وربما قاصر لا يحسن التقدير والتصرف ولذلك لاينبغي تركه لتقرير أموره ولا يتعين التحاور معه لتقرير تلك الأمور وعلى النخبة أن تتولى التفكير عنه وتقدير وتصريف أموره نيابة عنه.

ومما ترتب على ذلك أبعاد الجمهور العربي عن المشاركة الحقيقية والفعلية في تقرير الشأن العام سواء على المستوى القطري أو المستوى القومي وحصر دوره -حيث منح دور- في الاحتشاد والمباركة لما تقريره من قبل النخبة.

وبذلك غاب عن علاقة الجمهور -النخبة في المجتمع العربي أي حوار ذي مغزى. ويخطئ من يظن أن هذه النظرة الوصائية وما ترتب عليها من غياب الحوار اقتصرا علاقة النخبة الحاكمة - الجمهور فقد اتسمت بها أيضاً علاقة النخبة السياسية عموما بالجمهور، كما يعكس ذلك حال العلاقات الداخلية في الاحزاب والتنظيمات السياسية سواء الحاكمة أو المعارضة حيث تكاد تغيب عنها ممارسة الحوار الندي الحقيقي بين الجمهور (القواعد) والنخبة (القيادة) أو ما يستلزمه مثل هذا الحوار من ديمقراطية. بل أن النظرة الوصائية هي السائدة حتى في علاقة النخبة الثقافية بالجمهور العربي حيث يعتقد الكثيرون من أفراد وبعض اتجاهات النخبة الثقافية العربية أن دور الجمهور العربي ينحصر في حسن الاستماع والفهم والتنفيذ.

ولعلة ليس من العسير ملاحظة أن جذور النظرة الدونية للجمهور لدى المثقفين العرب تمتد إلى عصور الانحطاط الإسلامي حيث تبدو بارزة في كتابات بعض الفقهاء التي تطرقت للجمهور غالباً تحت مسمى العامة.

الشكية:

انتاب علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي قدر كبير من الشك المتبادل. ففي البدء أي عند تسلم النخب الوطنية للسلطة بعد رحيل الاستعمار أمل وتوقع الجمهور العربي أن تحقق له تلك النخب طموحاته التنموية وتطلعاته الحضارية، ولكن ونتيجة لفشل النخب في تحقيق تلك الطموحات التي وعدت بها ولما ظهر منها من سلوكيات وممارسات غير سليمة وما تكشف من علاقاتها المشبوهة بدأ الجمهور العربي ، بعد فترة انتظار وترقب، يشك ويزداد شكا مع مرور الزمن في مصداقية وقدرات النخبة العربية. ومع بدء الجمهور العربي في التلميح إلى شكوكه بوسيلة أو أخرى بدأ يساور النخبة العربية الشك في ولاء الجمهور لها أو اعترافه بها. وسرعان مابدأ الطرفان يعبران عن شكوكهما بوضوح حيث بدا الجمهور اقل استجابة للنخبة واكثر عزوفا عن النخب الظاهرة إلى البحث، متى ما سنحت لها فرصة للاختيار، عن نخب بديلة والإقدام في حالات نادرة على التظاهر. أما النخب فأكدت شكوكها بمقاومة منح الجمهور حق الاختيار الحر وتقييد حريات التعبير وأحياناً مصادرة هوامش الحريات التي انتزعها بعض الجماهير العربية بالثورة - مصادرتها بالانقلابات العسكرية بحجة أو أخرى.

□ د.عبدالملك منصور

التصادمية:

عندما ينتاب علاقة ما الشك يزداد احتمال انحدارها نحوالتصادم خاصة إذا ما كانت تلك العلاقة تفتقر للحوار الذي يساعد على تبديد الشكوك إذا مارافقه صدق النوايا المشفوع بالاستعداد للتصحيح العملي. ولأن علاقة الجمهور - النخبة في المجتمع العربي كانت، كما سبق الذكر، تفتقد الحوار المشار إليه انحدر بها ما انتابها من شك إلى العنف والتصادم . فمارس الطرفان العنف ضد الآخر كل بالوسائل المتاحة له وعلى نحوما شهدته وما زالت تشهده الساحة العربية. وربما كان من اتسوأ مظاهره مؤخراً نشوء حركات إرهابية من وسط الجمهور تمارس العنف ليس ضد النخبة (العالمية والمحلية) فقط وإنما ضد الجمهور أيضاً.

الاستبعادية:

مالت علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي في ما يتعلق بالشأن العام الى العمل في الوسط الذكوري من المجتمع واستبعاد أو إهمال العمل في الوسط النسائي الأمر الذي نتج عنه- كميا- انحسار هذه العلاقة عن أكثر من نصف المجتمع العربي وبالتالي عجزها عن دمجهم أو استيعابهم في دائرة العمل العام والاهتمام بالشأن العام. أما الأثر النوعي لهذا الاستبعاد على العلاقة نفسها وعلى الشأن العام فيحتاج تحديده إلى مزيد من الدراسات الأكاديمية.

لقد أسهم مجمل ما سبق في تحويل أو الإبقاء على علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي علاقة مختلة تنزع إلى أن تكون علاقة أحادية الاتجاه تبدأها النخبة ولا يكاد يستقبلها أو يرحب بها الجمهور إلا قليلاً مما أضعف تبادليتها أو جدليتها وحولها الى علاقة غير فعالة. وعزف أو كاد الجمهور عن الشأن العام وانصرف- وكثيراً ما تم صرفه عمداً- إلى شئونه الخاصة مما أتاح الفرصة للنخبة الانفراد بالشأن العام والعمل على خصخصة ليس المرافق العامة فقط وإنما المصلحة العامة عموماً.

اختلالات وعيوب طرفي علاقة الجمهور- النخبة:

لاشك أن الاختلالات والعيوب السابقة وغيرها والتي اصابت ولازمت علاقة الجمهور- النخبة في لمجتمع العربي وانتهت بها إلى ما انتهت إليه من وضع مؤسف مزر إنما نتجت عن عوامل وأسباب متعددة منها الذاتية أو الداخلية ومنها الخارجية. ومن تلك العوامل والأسباب عيوب واختلالات عانى منها طرفا العلاقة نشير إلى بعضها في ما يلي:

من عيوب واختلالات النخبة:

التقليدية والافتقار للإبداع والاجتهاد:

اتسم فكر النخبة الثقافية العربية بالتقليدية وضعف الابداع والاجتهاد . وقد يبدو للبعض أن التقليدية في النهج إنما هو شأن فكر التيار الديني فقط من النخبة الثقافية. وصحيح أن فكر أو فهم التيار الديني ساده التقليد وفشلت النخبة الدينية في كثير من الحالات في الانعتاق من إشكالية التقليد والتي ابتلي بها الفقه الإسلامي منذ عصور بعيدة ولم تنجح في بلورة اجتهادات فقهية تعالج المستجدات وخاصة في الشأن العام معالجة مستمدة من أصول الدين، وفي نفس الوقت مناسبة للعصر. ولكن الأصح هو أن التقليدية مثلت سمة طاغية لكل النخبة الثقافية العربية وأن التيارات الأخرى لم تكن أقل تقليدية من التيار الديني. وكل ما في الأمر أنه بينما ابتلي التيار الديني بالنزوع الى تقليد نماذج فقهية موروثة ابتليت التيارات الأخرى بالنزوع الى تقليد نماذج فكرية ابتدعها آخرون خارج نطاق العالم العربي ولمعالجة ظروف تختلف في كثير من نواحيها عن ظروف المجتمع العربي وطفقت تنقلها وبدون اجتهاد يذكر في تحويرها وتطويرها لتناسب المجتمع العربي. ولان كل ما استهوى تيارات النخبة الثقافية العربية تقليده كان ضعيف الصلة براهن المجتمع العربي فإن كل تلك التيارات اغتربت، وإن بدرجات متفاوتة عن المجتمع العربي والجمهور العربي.

ولم يقتصر الاغتراب، كما يظن بعض النخبة الدينية، على النخب الأخرى فكما اغتربت النخب الأخرى عن راهن المجتمع العربي مكاناً أو منشأ حيث ظلت مشدودة إلى مكان خارج مكان المجتمع العربي اغتربت النخبة الدينية عن راهن المجتمع العربي زماناً حيث ظلت مشدودة إلى ماضي المجتمع العربي وليس إلى حاضره .

وقد حال النهج التقليدي للنخبة العربية دون تمكنها من الإبداع والإبتكار اللازمين لبلورة رؤية تنموية حضارية واضحة تكفل معالجة قضايا المجتمع وتفعيل علاقة الجمهور- النخبة.

تصادمية العلاقات البينية:

أن ما سبقت الاشارة إليه من تصادمية علاقات الجمهور- النخبة في المجتمع العربي إنما تعود أساساً إلى تصادمية العلاقات ما بين فئات أو تيارات النخبة العربية فقد ضلت هذه العلاقات طريق الحوار والتنافس السلمي وانغمست في ممارسة العنف ضد بعضها البعض . ولم يقتصر العنف على ما تبادلته النخبة الحاكمة والنخبة الثقافية وانما تغلغل وامتد الى علاقات النخب الحاكمة مع بعضها البعض وعلاقات النخب الثقافية مع بعضها البعض. وربما كان اشد دوائر العنف تلك وقعا على النفس وإيلاماً لها دورات العنف التي انزلقت إليها النخبة الثقافية وادارتها بأسلوب خسيس تمثل في استعداء النخب الحاكمة على الآخر الثقافي أو التواطؤ معها في ضرب هذ الآخر الثقافي وإصدار فتاوى التكفير والضلال أو الردة الفكرية واتهامات التخوين والعمالة وعلى نحوى ذكر بذات الممارسات الخسيسة التي كانت قد انزلقت إليها التيارات الثقافية العربية التاريخية كالمعتزلة والأشعرية.

ولعل مما يثير الغرابة ويستحق التأمل والدراسة ملاحظة أن من ابتدر إلى خساسة استعداء النخب الحاكمة على الآخر الثقافي في كلتا الحالتين أي في الماضي البعيد وفي الحاضر القريب كانت هي التيارات الثقافية التي عرفت بالانحياز إلى، أو رفعت شعار العقل والعقلانية!!!

الاختلال التكويني والهيكلي:

عانت النخبة العربية من اختلالات تكوينية وهيكلية كانت لها انعكاساتها السلبية عليها وعلى علاقتها بالجمهور ومن تلك الاختلالات:

غياب التناسب بين قوة النخبة الحاكمة (القوة المادية أو العسكرية) وقوة النخبة الثقافية (القوة المعرفية).

طغيان النخب القطرية على النخب القومية

● غياب العنصر النسائي عن النخبة الفاعلة في الشأن العام

تقليدية / بدائية المناهج التكوينية (التربوية والاعدادية) للنخبة الثقافية مما أفقرها من الكفاءات الفكرية والعلمية العالية والقادرة على الإبداع والإبتكار.

تكون النخب الحاكمة بطرق كثيراً ما تكون غير مقبولة لدى الجمهور

من عيوب واختلالات الجمهور:

الأمية:

يعد انتشار الأمية في أوساط الجمهور أهم عيوب الجمهور حيث أنها تاتي في مقدمة محددات وعيه وأسباب تعرضه للتضليل وعوامل عجزه عن بناء الذات.

الفقر:

يمثل تمكن الفقر من الجمهور العربي أحد أهم أسباب انصرافه عن الشأن العام انشغالاً بضروريات المعيشة، وتعرضه للاستغلال أضطراراً، واستمرار أميته أو ضعف تعليمه لعجزه عن تحمل النفقات.

ضعف التنظيم:

أن الجمهور العربي لا يفتقر فقط لقوة المعرفة (بسبب الأمية) وقوة المال (بسبب الفقر) والقوة العسكرية (لأسباب قانونية وأخرى) وإنما يفتقر أيضاً للقوة التنظيمية (التنظيمات الأهلية) والتي كان يمكن أن تكون أحد أهم أسباب القوة المتاحة للجماهير للانطلاق نحوالانعتاق من الأمية ومن الفقر بحسن تنظيم وتوجيه مواردها الشحيحة وقوتها السياسية الهائلة.

المستقبل:

الحديث عن مستقبل علاقة الجمهور - النخبة في المجتمع العربي يثير نقاط شتى على إننا سنكتفي هنا بإشارات إلى نقطتين هما:

التطورات والمتغيرات المحلية والدولية المؤثرة على العلاقة.

معالجة مستجدات واختلالات العلاقة

التطورات والمتغيرات:

لعل مما يصح أن يكون مبعث تفاؤل لمن يكون قد أقلقهم ما تم استعراضه من جوانب الصورة القاتمة لراهن علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي أن التطورات المحلية ذات الصلة بهذه العلاقة تبدو أكثر إيجابية. ومن تلك التطورات التنامي الملحوظ في وعي كل من طرفي العلاقة، والتوسع المتواصل للهامش الديمقراطي في المجتمع العربي، وانتعاش حركة انتظام ومؤسسة المجتمع المدني العربي و...الخ.

وبالطبع لا تخلو التطورات المحلية من تحديات وأحياناً سلبيات مخيفة وربما كان من اهمها ما لوحظ مؤخراً من تنامي بعض توجهات وحركات العنف في أوساط بعض قطاعات النخبة والجمهور كما يعكس ذلك ما تشهده بعض المجتمعات العربية من أحداث مؤلمة وكذلك التراجع الملحوظ في الأوضاع الاقتصادية في المجتمعات العربية كما تعكسه ظواهر تنامي البطالة وانخفاض مستويات المعيشة والمضاعفات المحتملة لهذا التراجع على الجماهير والنخبة ومن ثم على علاقتهما ببعضهما.

في ما يخص التطورات والتغيرات الدولية ذات الصلة يبرز في المقدمة تنامي التأثير أو الدور الدولي في علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي. صحيح أن علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي ظلت تتعرض عبر التاريخ المعاصر للتأثير الخارجي ولكن هذا التأثير كان محدوداً أسلوباً ومجالاً. فأسلوباً كان هذا التأثير يتوسل بالاستعمار ومن بعده، أساساً، بالنخبة الحاكمة في تحقيق أهدافه، ومجالاً كان يستهدف أساساً الشأن السياسي والاقتصادي وباستثناء جهود التبشير وفترة الاستعمار، وخاصة الفرنسي، لم يستهدف التأثير الخارجي الشأن الثقافي العربي بشكل أساسي كما لم يستهدف الجمهور مباشرة. أما الآن ومع تصاعد حركة العولمة والتطورات المذهلة في وسائل الاتصال الجماهيري ورواج بعض النظريات الاستراتيجية والتوجهات الصراعية وتطور الفهم للمجتمعات وأسس التحكم فيها وتوجيهها فإن هذا التأثير الخارجي قد تنامأ وتوسع بقيادة النخبة العالمية (النخبة الغربية) بشكل كبير أسلوباً ومجالاً وتحول إلى تدخل خارجي واضح يستهدف الشأن الثقافي بقدر ما يستهدف الشأنين السياسي والاقتصادي، ويتوسل بالنخبة الثقافية بقدر ما يتوسل بالنخبة الحاكمة بل ويخاطب الجمهور مباشرة، ويستخدم الكلمة بقدر ما يستخدم النفوذ السياسي والضغوط الاقتصادية والأمنية بل ويستخدم القوة العسكرية تهديداً وتاديباً و- إن اقتضى الأمر- احتلالاً سافراً.

هذا التحول الكبير يبرر القول- أحسب دون مبالغة- أن علاقة الجمهور - النخبة في المجتمع العربي لم تعد علاقة ثنائية الأطراف كما كانت في السابق بل تحولت الى علاقة ثلاثية الاطراف تمثلها بالاضافة إلى الطرفين الأصليين، أي الجمهور العربي والنخبة العربية، النخبة العالمية كطرف ثالث لا يقل وربما يزيد تأثيراً عن الطرفين الآخرين. ومع أن المضاعفات المحتملة والآثار المستقبلية لهذا التحول على علاقة الجمهور- النخبة والمجتمع العربي ككل لم تحظ بعد بالدراسة العلمية المنظمة فإن الأرجح أنها لن تكون آثاراً بسيطة خاصة إذا لم يسارع المجتمع العربي لدراستها ومعالجتها .

معالجة المستجدات والاختلالات :

في ضوء ما تمهد يمكن القول بأن معالجة مستجدات واختلالات علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي تتطلب القيام بثلاث خطوات أساسية هي:

تعميق الوعي بالحالة الراهنة لعلاقة الجمهور- النخبة وبالمستجدات ذات الصلة وآثارها من خلال المزيد من الدراسات المتعمقة والموجهة.

تشجيع المتغيرات والتطورات الايجابية ذات الصلة بعلاقة الجمهور- النخبة والتصدي للتحديات والمتغيرات السلبية.

إصلاح -أو تصحيح اختلالات وعيوب علاقة الجمهور - النخبة . ونحسب أن أمثلة الاختلالات والعيوب التي تم استعراضها سابقاً قد عرضت بطريقة توحي بالاصلاحات المطلوبة.

بيد أن الكثير من أوجه الخلل والعيوب المطلوب إصلاحها أو تصحيحها وكذا التحديات التي يتعين التصدي لها يمكن أن يثير عدداً من الإشكالات النظرية والمشكلات العملية المرتبطة بمحاولة تحديد الاصلاح أو التصدي الأمثل مضموناً وأسلوباً ومن ذلك مثلاً:

- الاصلاح الأمثل لخلل علاقة النخبة الثقافية بالنخبة الحاكمة بين اقتراحي التعاون والمعارضة واتجاه المقاطعة أو البيات.

- التصدي الأمثل لتحدي الطرف الثالث - طرف النخبة العالمية- في علاقة الجمهور- النخبة بين دعوات الصدام والمواجهة المسلحة ودعوات الحوار الموضوعي والتلاقح وتوجهات الذوبان والتغرب.

ولن يناسب المقام محاولة المناقشة المفصلة لمثل تلك التساؤلات والإشكالات بيد أنه قد يكون من المفيد أن نشير قبل أن نختم القول الى اهمية بلورة خطوط أو موجهات عامة توجه المناقشات التفصيلية وتقوم بدور معايير عامة تعين على بلورة الاجابات السليمة. ولعل من أهم تلك الموجهات العامة التي يمكن أن تكون محل إجماع أو توافق عام:

- ضرورة استعادة وتعزيز جدلية علاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي.

- ضرورة استعادة النخبة لمصداقيتها تبديداً لشكية الجمهور.

- التمسك بالحوار في مواضع الاختلاف وبالتعاون في مواضع الاتفاق.

- أهمية الإبداع الثقافي في بلورة الإطار الحضاري لعلاقة الجمهور- النخبة في المجتمع العربي.

بريشة/ عبدالفتاح عبدالولي